عالم الأسرار

ما أعجب تلك النفس التى فى داخلنا .

فيها من النار « الشهوة والجوع والغضب والحقد والحسد والغل » .

وفيها من النور « العفو والتسامح والحلم والفهم والحنين إلى النور الأعظم الذى جاءت منه » .

فيها من الطين « الآلية والتكرار والجمود والرتابة والقصور الذاتى والخمول والكسل والعجز عن التغيير والتثاقل والتهابط » .

وفيها من الروحانية « الانطلاق والحرية والشفافية والابتكار والخلق والإبداع والخيال والجمال » .

وهى لا تولد نارية ولا نورية ولا طينية ولا روحية ... وإنما تولد مجرد إمكانية قابلة للصعود أو الهبوط إلى أى من هذه المراتب .

وإذا تأمل الواحد منا نفسه فى موضوعية شديدة ونظر إلى باطنه فى حياد مطلق فإنه يلاحظ أنه فى حالة تذبذب دائم بين هذه المراتب صاعدًا وهابطًا من لحظة لأخرى ومن يوم لآخر ، من حالة وجدانية إلى حالة عقلية إلى حالة شهوانية إلى صفاء روحانى .

والصوفيون يسمون هذه المراتب بالمقامات ...

وقليل جدًّا هم الذين يستطيعون الاستقرار والدوام فى المقامات الروحية دون أن تشدهم جذبات الشهوة والجوع وأحقاد الحياة المادية وأطماعها .

وكثير جدًّا هم الذين يستقرون فى المراتب السفلية حيث الحياة شهوة ومضاجعة وأكل وشرب وحيث لا هموم إلاّ هموم البطن والفرج .

ويبقى بعد ذلك أوساط الناس ممن يتأرجحون بين النار والنور بين جذبات العلو وجذبات التسافل ينتشلون أنفسهم من إغراء ليقعوا فى آخر .

ولأن الشيطان مخلوق من النار فلا مدخل له على الإنسان إلا إذا تهابط إلى المرتبة النارية من نفسه « وهى مرتبة الشهوة والجوع والغضب والحقد والحسد والغل » حينئذ يمكن أن يتم التواصل بين الاثنين بحكم المجانسة .. فيستطيع الشيطان أن يوصل إلى الإنسان وسوساته وأن يؤجج شهواته ويشعل غضباته .. ولكنه يظل معزولا عمن هم فى

المراتب الروحية العالية بحكم عدم التجانس فهو لا يستطيع أن يوصل إليهم وسوسته .

ولهذا يقول الله تبارك وتعالى فى القرآن للشيطان :

(إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) .

لأنهم ارتفعوا إلى منطقة يستحيل فيها التواصل وخرجوا من نارهم الكثيفة إلى أرواحهم اللطيفة .. حيث لا يسمع إلا رفيف الملائكة وإلهامات الأرواح العالية .. وحيث يصبح نفث الشيطان أكثف من أن يصل إليهم .

ولغز النفس الإنسانية هو فى قابليتها لتمثل هذه الأدوار وقبول هذه المراتب المتفاوتة علوًّا وسفلاً .

يقول الله تعالى عن هذه النفس (.. فألهمها فجورها وتقواها) .

ويقول فى كتابه الكريم عن قصة خلق آدم :

(وعلم آدم الأسماء كلها) .

ويفسر الصوفيون ذلك بأن الله جعل نفس آدم قابلة لتجليات الأسماء الإلهية .. فالإنسان يمكن أن يكون « الجبار » ويمكن أن يكون « الرحيم » ويمكن أن يكون « المنتقم » ويمكن أن يكون « العفو » وهذه كلها أسماء إلهية .. ولكنه أيضًا يمكن أن يخرج عن هذه الأسماء الإلهيةويهبط إلى درك الأوصاف الشيطانية فيكون اللعين والرجيم والمطرود والمحجوب ويمكن أن يهبط إلى درك الأوصاف الحيوانية

ويمكن أن يهبط إلى غلظة الجمادات وإلى برودة الصخر الأصم .

وهكذا خلق الله لآدم نفسًا قابلة للتصور فى جميع صور الكائنات .. من أعلاها إلى أسفلها .

ويقول الصوفيون فى هذا : إن الإنسان هو الكتاب الجامع والكون هو مجرد صفحات من هذا الكتاب . أو سطور منه ... فما الأرض والسماوات إلا صفحات من كتاب جامع هو الإنسان الذى يستطيع أن يجمعها جميعًا ...

ولهذا أمر الله الملائكة بالسجود لهذه النفس العجيبة التى سواها ونفخ فيها من روحه ، لتكون قابلة لأن تسع الكون بجميع صوره ومراتبه ودرجاته .. وأخذ على نفسه العهد بتربية هذه النفس وهدايتها وجذبها إليه وتأديبها باللين والمكافأة وبالشدة والتعذيب .. بالرسل وبالكتب وبالمصلحين والهداة .. وبالنذر والكوارث والآلام الهائلة .. إن لم تنفع الهداية .

وقال فى كتابه :

(يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه) .

كلنا كادحون إلى الله زحفًا .

كلنا ساعون إليه طوعًا أو كرهًا .. بالنار وبالألم والدروس القاسية والتنكيل .. أو طوعًا واختيارًا وحبًّا وكرامة .. ولن يستطيع أحد أن يخرج عن الصف .. ولا أن يخرج عن الاتجاه ، فلا يوجد إلا اتجاه

واحد .. وهو السير إلى الله ..

(إلى الله المصير) .

(وإليه يرجع الأمر كله)

(ألا إلى الله تصير الأمور) .

(وهو خلقكم أوّل مرة وإليه ترجعون) .

والعبيد هم الذين يسيرون إليه بالضرب والنكال والعصا ، والعباد الأخيار هم الذين يسعون إليه حبًّا وشوقًا واختيارًا ، ولا يوجد إنسان ملحد بحق .. آبق عن الطريق .. فالكل على الطريق .. والملحد هو مجرد رجل منكر جاحد معاند لا يدرى ماذا يُفعل به ، ولكنه فى الحقيقة سائر على نفس الدرب بالعصا والكرباج شأنه شأن أمثاله من العبيد حقراء الشأن ، ممن اختاروا ألاّ يكون لهم اختيار .. وتصوَّروا أنهم اختاروا الحرية .. والحقيقة أنهم اختاروا أن يصكوا على أدمغتهم وقد طبع على قلوبهم وغشى على أبصارهم ، فصاروا كبهائم السواقى .. تتصور أنها تمرح فى الشمس والحقيقة أنها مغلولة إلى السواقى ، تعمل راغمة فى مقابل حزمة البرسيم .

وفى هذا الجذب الإلهى للجميع منتهى الرحمة واللطف والحب والمودة .. فهو سبحانه حريص على إخراج الكل من الظلمات إلى النور ثم إلى الحضرة الإلهية عنده .. الكل واصل فى النهاية بفضل الله ورحمته التى وسعت كل شىء ..

ولكن البعض منا سيطول طريقه .. مارًّا بنار الدنيا ونار الآخرة وهؤلاء هم المجرمون والمعاندون .. والبعض سيصلون إلى الحضرة الإلهية وهم فى حياتهم الدنيوية كما فعل محمد عليه الصلاة والسلام فى الإسراء والمعراج حينما أصعده الله من فوق سبع سموات .. لأنه أهل للتشريف والتعظيم .. والشريف العظيم لا يجوز له أن ينتظر طويلا بالباب قبل أن يأذن له الملك وإنما يجب أن تفتح له الأبواب ويتلقى بالأحضان.

هى رحلة الأبد والأزل من بداية خلق الأرواح فى الملكوت إلى التنزل فى الأرحام إلى الحياة الدنيا إلى الموت إلى عالم البرزخ إلى قيام ساعة إلى الآخرة إلى ما بعد الآخرة مما استأثر الله بعلمه.

وهى أسرار يستمع إليها البعض فى رهبة، ويبتسم لها البعض فى غفلة، ويهزأ بها البعض فى جهالة .. ويقول هل هناك حقًّا شياطين، ويؤمن بذرة لا يراها وإلكترونات لايعرف عنها إلا آثارها .. وآثار الشياطين فى حياته أكثر وضوحًا من آثار الإلكترونات .. وهى حقائق عند أهل الحقائق ممن لهم حظ فى معرفة هذه الأشياء ذوقًا وشهودًا، وممن كشف عنهم الغطاء فرأوا ما لا يرى وسمعوا ما لا يسمع.

والعاقل العليم من دعا الله أن يهديه إليه شوقًا واختيارًا لا قهرًا وإجبارًا، فيكون مثل السادة الأشراف لا مثل العبيد حقراء الشأن الذين يصكون على أدمغتهم، وقد طبع على قلوبهم وغشى على

أبصارهم فتصوروا أنفسهم من أهل الشطارة وهم من أهل الخسارة .. وتصوروا أنهم اختاروا ، والحق أن شيطانهم هو الذى اختار لهم سوء الدار وسوء القرار .